

(*)

المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا

مراجعة تتركي على الربيعو

الكتاب واحد من الكتب الهامة التي دأبت سلسلة عالم المعرفة على إصدارها بين حين وآخر، فهو يرسم لنا صورة رائعة ودقيقة للمحنة النضال التي خاضها رجال «صدقوا ما عاهدوا الله عليه» ضد أعداء الأمة من الوثنيين ومن قوى الاستعمار الغربي. ويروي لنا قصة أولئك الأبطال الذين ضحوا بالنفس والنفيس دفاعاً عن الإسلام. لأن الدفاع عن الإسلام كان يعني دفاعاً عن الوطن. لننعم النظر في هذه الصورة المشرفة لرجال الطرق الصوفية من أتباع «رابح فضل الله» في صراعهم مع المستعمر الفرنسي «كان المصابون يمسكون بأسلحتهم ويطلقون النار على الفرنسيين حتى النطق بالشهادة في سبيل الله، وكانت معارك السلاح الأبيض والتشابك بالأيدي، حيث واجه المؤمنون الجموع الفرنسية بشجاعة وإقدام. ورغم عدم تكافؤ القوتين إلا أن إيمان الرجال بقضيتهم جعلهم يفضلون الاستشهاد في سبيل الله على الاستسلام لقوات المشركين فكانوا جند الله البواسل الذين كبدوا الفرنسيين خسائر فادحة في معداتهم وأرواحهم».

يعرض الكتاب صوراً دقيقة لست ملاحم، حدثت في الثلث الأخير في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ففي نهاية القرن التاسع عشر وبعد مؤتمر برلين (15 نوفمبر 1884 إلى 26 فبراير 1885) حيث اجتمعت أربع عشرة دولة أوروبية لاقتسام القارة الأفريقية، فقبل هذا المؤتمر كان هناك 10% من مساحة أفريقيا تحت الحكم

(*) تأليف الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم - سلسلة عالم المعرفة - العدد 139 - ذو العقدة 1409هـ - يوليو/ تموز 1989م - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.

الاستعماري. أما بعد المؤتمر فقد أصبح التكالب حقيقة واضحة، وبدأ الاستعمار يفرض نفسه بالقوة مما أدى إلى اصطدامه مع القوى الوطنية الإسلامية في أفريقيا، فشهد هذا الثلث الأخير معارك دامية بين الحركات الإصلاحية الإسلامية والقوى الاستعمارية المناهضة.

يتألف الكتاب من ستة فصول.

- الفصل الأول: المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية الغولاني.

هذه الامبراطورية جاءت إلى الوجود مع بداية القرن التاسع عشر. ويرد بعض المؤرخين أصول الغولاني إلى قبائل بربرية اعتنقت الإسلام وانتشرت باتجاه السودان الغربي والسنغال في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. وأصبحوا قوة أكيدة ومسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد بزعامة الشيخ عثمان بن فودي عام 1804، والتي أخذت البدع وأحييت السنة، وكان لها الدور الكبير في نشر الإسلام في غربي أفريقيا بأسرها. ص 40. ويرى المؤلف أن جهاد هذا الرجل لم يتوقف عند حدود إعلان الجهاد على الوثنيين، بل تعداه إلى إقامة دولة إسلامية حملت لقب الخلافة الإسلامية في سوكوتو، وظل أبنائه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان، وكان لهم شرف الكفاح ضد الأوروبيين، فكانوا حماة الدين وشهداء العقيدة في أوائل هذا القرن. هذا الفصل يستعرض قصة صراع الدولة الإسلامية الغولانية ضد الاستعمار الغربي. ففي عام 1900 م ألغت الحكومة البريطانية. مرسوم شركة النيجر الملكية، وأنشأت قوات حدود غرب أفريقيا لبسط نفوذها على دولة الخلافة الغولانية في سوكوتو. ثم قامت وبقيادة اللورد لوجارد باحتلال بعض الإمارات المسلمة المتفرقة والمتصارعة والتابعة للخلافة في سوكوتو، وبذلك خلقت الجو المناسب للمواجهة مع دولة الخلافة لإسقاطها وضمها إلى بريطانيا بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن بن عثمان بن فودي. ففي 29 يناير 1903 توجهت القوات البريطانية شمالاً واحتلت إمارة كانو وقلعتها الحصينة بعد قتال مريع تكبد البريطانيون فيه خسائر فادحة. وبسقوط كانو سقطت أحد الأعمدة الرئيسية لدولة الخلافة. وبدأ الزحف البريطاني باتجاه العاصمة. والتقى الجيشان على مشارف العاصمة في 14 آذار 1903. لكن المعركة كانت لصالح مدافع

مكسيم على حد تعبير المؤلف . لكن الخليفة لم يستسلم فتراجع إلى بورمي Burme وترك العاصمة للبريطانيين والنف الناس من حوله ، ورفعت راية الجهاد ، وبدأت المناوشات في 16 يونيو 1903 وصمدت المدينة في وجه القوات البريطانية ، مما اضطر البريطانيين إلى الانسحاب ، مخلفين أكثر من 60 قتيلًا من بينهم عدد من الضباط . وفي 27 يوليو 1903 تحركت القوات البريطانية باتجاه بورمي ، وقصفتها بالمدافع ، ودخلتها من بوابتين ، وبدأ القتال وجهاً لوجه ، لكن عنف المقاومة أدى إلى تراجع البريطانيين والانسحاب ، وبعد أن وصلتهم تعزيزات حديثة ، عاودوا ودخلوا المدينة بعد قصفها بالمدفعية المتطورة ، حيث استشهد الخليفة وهو في المسجد معتصماً ، وبذلك أسدل الستار على دولة إسلامية تأسست في أوائل القرن التاسع عشر بفضل جهاد الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله .

- الفصل الثاني: المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية التولوكور .

هذه الامبراطورية المسلمة أسسها الشيخ عمر الغوني التكروري ، المولود في عام 1795 ، حيث تتلمذ على مشايخ الطريقة الصوفية التيجانية ، فقد أعلن الشيخ عمر بعد عودته من الحج ومن رحلة في بلاد الإسلام لمدة عشرين عاماً ، الجهاد ضد الوثنيين وضد الاستعمار الفرنسي وذلك في عام 1849 م واستطاع في خلال عشر سنوات وبمساعدة جيشه المؤلف من تلاميذه ومن الصوفيين المتحمسين للجهاد من أن يسيطر على كل السودان الغربي ، من حدود تمبكت حتى حدود السنغال الفرنسية ، وقام ببناء المساجد ونشر المدارس القرآنية والعمل على تنقية الإسلام من الشوائب .

وابتداءً من عام 1854م ، قام الفرنسيون بمساعدة أعدائه ومدهم بالأسلحة ، مما اضطر الحاج عمران إلى مهاجمة الفرنسيين في مدينة مادينا رمز السياسة الفرنسية العدوانية ، وفي عام 1859 هاجمت قواته قلعة ماتام Matam . لكنه اضطر إلى التراجع بسبب بعض الخسائر في قواته . وبدأ يعرقل التجارة الفرنسية على طول نهر السنغال . وفي 25 أكتوبر 1859 هاجمت القوات الفرنسية القلعة التي يتحصن بها الحاج عمر ، وقامت بتدمير القلعة ، فاتجه الحاج إلى النيجر للتمشيت المسلمين لمواجهة الغزو الاستعماري ، وخاض حرباً ضارية تجاه بعض الحكام المسلمين المتعاونين مع

الاستعمار، لكنه كان على الشيخ عمر أن يواجه تحالفاً بين أعدائه من المسلمين والوثنيين قاد إلى استشهاده في 12 فبراير 1864 وهو يناضل من أجل بناء الدولة الإسلامية.

وبالرغم من أن ابنه أحمد حاول أن يفتح صفحة جديدة مع الفرنسيين. إلا أن محاولات الفرنسيين للتغلغل في أراضي امبراطورية التوكولور ظلت مستمرة حتى اتفاق برلين عام 1884 م. عندها قامت القوات الفرنسية باحتلال بعض المناطق والتوغل داخل الامبراطورية. عندها قام الشيخ أحمد بمهاجمة قوافل الفرنسيين. وأجبرهم على عقد معاهدة سلام في مايو 1887. لكن الفرنسيين وبعد أن تمكنوا من القضاء على الشيخ محمد الأمين والزعيم المسلم ساموري توري والذين سنأى على ذكرهما، قاموا في فبراير 1889 بشن هجومهم على القلعة التوكولورية. وبعد سلسلة من المعارك الضارية، تمكنت القوات الفرنسية، في 28 أبريل 1893 من دخول عاصمة الشيخ أحمد المدعوة باندياجارا، وبذلك تم القضاء على امبراطورية التوكولور. ويعلق المؤلف بقوله: «إنه بالرغم من سقوط امبراطورية التوكولور إلا أن أتباع الحاج عمر قد اكتسبوا شهرة القيادة الإسلامية في السودان الغربي، وانتشرت التيجانية بعد ذلك، وقاومت التبشير المسيحي الذي اجتاحت امبراطورية التوكولور في أعقاب السيطرة الأوروبية، ورغم سقوط الامبراطورية سياسياً إلا أنها استمرت تمارس حياتها الدينية، وحافظت على تراث الإسلام وحضارته أمام موجات الغزو والتوسع الأوروبي والتبشير المسيحي». ص 108 - 117.

- الفصل الثالث: المسلمون والغزو الأوروبي لمنطقة سانجامبيا.

في منطقة سانجامبيا، أسس الشيخ محمد الأمين الذي ينتمي إلى شعب السراكولا، حركة يصفها المؤلف بأنها قومية إسلامية جهادية. ولد هذا الشيخ بقرية جوندوريو والتي كانت مركزاً للدراسات الإسلامية. وكان والده من المرابطين حيث تعلم الوعظ والإرشاد والشرعة على يديه. وعندما بلغ الحادية والعشرين زار الحجاز ودرس في مكة العلوم الإسلامية، وتأثر بالوهابية كما ترى بعض المصادر، وزار مصر والقسطنطينية وعندما عاد إلى مسقط رأسه في عام 1885 توافد الناس عليه وكثر عدد

أتباعه، فأعلن الجهاد، حيث يصف المؤلف حركة الشيخ الأمين بأنها «حركة قومية اتخذت من الإسلام وشرعية الفداء هدفاً أسمى لها». ص 123. وعندما أصبح الشيخ الأمين القائد المحلي لأغلبية شعب السراكولا، أعلن الجهاد ضد الفرنسيين، وبعد سلسلة من المناوشات التقى الجيشان في معركة كونجويل 1886 م، حيث بلغت قوات الشيخ 1500 رجل تطوعوا للقتال في مقابل جيش فرنسي حديث ومتدرب بلغ عدد أفراد 600 جندي. حيث تمكن الشيخ من الإجهاز على الفرنسيين في معركة استمرت أربع ساعات، فقد على أثرها الفرنجة الكثير من الجرحى والقتلى والأسلحة والذخائر، وكانت نصراً للشيخ وازداد عدد أتباعه وتطاييرت أخباره بالنصر. وتوجه إلى مدينة باكل الفرنسية وأحكم الحصار من حولها. عندها اضطر الفرنسيون أن يوقفوا قتالهم مع مجاهد إسلامي آخر هو الشيخ ساموري توري. وأن يوجهوا قواتهم إلى قرية جوري مبال Guery Mpal في المنطقة المجاور لمدينة باكل. والتقى الجيشان من جديد، وتمكنت قوات الشيخ من إلحاق الهزيمة بالفرنسيين ودخل الشيخ باكل. ودخل الطرفان في حالة حرب شاملة انتهج فيها الفرنسيون سياسة الإبادة والحرق (الوجه المشرق للحضارة الغربية الفأوستية؟) وجاء دور الشيخ سريعاً، وبالأسلوب نفسه حيث قام بحرق مركزهم في سوتوديبو. مما أفقد الفرنسيين السيطرة على الموقف وألحق بهم خسائر فادحة وانسحبوا تاركين وراءهم الدمار والخراب. وبعد أن استتب له الأمر ونظم قواته، هاجم مركزاً للفرنسيين يضم ثلاثة آلاف جندي واستولى عليه وقتل كبير المتحالفين معهم عدوه (عمر سعدا). وفي ديسمبر 1886 توجهت ثلاث فرق عسكرية لمواجهة الأمين مما اضطره إلى الانسحاب، ثم عاود الهجوم في الصيف حيث تمكن من إحراز الانتصار على الفرنسيين. لكن القوات الفرنسية عاودت الهجوم وتمكنت في معركة «نجوجوسوكوتا» من قتله وبذلك استشهد مجاهد كبير في نشر الدعوة الإسلامية. وبالرغم من أن جهاده كان قصيراً في مداه، إلا أنه كان عميقاً في مغزاه، قوياً في أثره، اتسم بالعنف والصلابة ومواجهة الأعداء من الداخل والخارج.

- الفصل الرابع: المسلمون والغزو الأوروبي لإمبراطورية ساموري توري.

يقول المؤلف: إن ساموري توري من الزعماء الأفارقة المسلمين الذين لعبوا

دوراً هاماً في القارة الإفريقية فقد استمر في مقاومة الغزاة الأوروبيين حوالى سبعة عشر عاماً بدءاً من 1881 وحتى عام 1898 م، بعد أن كان قد أسس دولة إسلامية في أعالي النيجر. ولد هذا القائد في عام 1835 في غينيا، مارس التجارة وخدم في الجيش وتدرّب على الأعمال القتالية، واستطاع أن يجمع حوله مجموعة من الشبان المؤمنين بالإسلام، شكلوا النواة الأولى للجيش، القوة الرادعة الفعالة في مواجهة المحتلين. وقد بلغ مجموع جيشه عند أول حملة ضد الفرنسيين عام 1885 حوالى 1500 جندي، بلغ بعدها أي في عام 1887 ما يقارب 33 - 35 ألف جندي، وزوده بأحدث الأسلحة وأشرف على تدريبه حتى وصل إلى ذروة استعداداته في عام 1890، وعندها بدأ بالإغارة على القرى والمراكز التابعة للفرنسيين، والتقى الجيشان الفرنسي والإسلامي بعد سلسلة من المناوشات في مدينة ميلو Milo وأظهر جيشه مقدرة فائقة وصمدوا في وجه المدفعية الفرنسية، أعقب ذلك سلسلة من المباحثات بين الفرنسيين والإمام ساموري، لكنه رفض مفهوم الحماية الفرنسية لأن خطة الفرنسيين كانت تهدف إلى إحكام قبضة فرنسا على المناطق التي خصصها لها مؤتمر برلين. وعندما التقط أنفاسه، عاد في 20 حزيران 1898 ليلتقي جيشه بجيش الفرنسيين على الساحل الضيق لمدينة بافنكو Bafinko وكسب معركة كبيرة. وفي 29 أيلول 1899 تمكن الفرنسيون بعد إعلان الحرب على هذا المجاهد من إلقاء القبض عليه وأسرّه، تاركاً المقاومة لحفيده أحمدو سيكوتوري الذي صار رئيساً لجمهورية غينيا التي حصلت على استقلالها عام 1958م قبل كل المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا. إن عظمة ساموري توري تكمن كما يرى المؤلف في عبقرية الاستراتيجية التي كشفت عن نفسها خلال خمسة وعشرين عاماً من النضال والمواجهة ضد الأعداء، حيث استطاع أن يوحد بين جماعات شتى، وأقام مجتمعاً إسلامياً في وقت كانت فيه القوى الاستعمارية قد تقاسمت القارة، وتكمن فضيلته في أنه لم ينشر الدين الإسلامي فحسب بين الشعوب الإفريقية، بل غرس روح التضحية والفداء ومقاومة الأجنبي في نفوس الناس، وكذلك هيأ القاع للثورة المستمرة على المحتل والغاصب.

- الفصل الخامس : المسلمون والغزو الأوروبي لدولة رابع فضل الله .

ولد هذا الزعيم المسلم في عام 1846 م في إحدى قرى بحر الغزال، وكان ابناً لأحد ملوك القبائل، خدم والده في السلك العسكري للخديوي إسماعيل ثم انضم إلى جيش حاكم بحر الغزال، وبعد انهيار دولة الزبير باشا حاكم بحر الغزال، قام رابع بتأسيس جيش نظامي وكان على دراية وخبرة لخدمته في جيش الزبير باشا، وفي عام 1884 استطاع أن يؤسس امبراطورية إسلامية تمتد على مساحة 150 ألف كم² وتضم أكثر من 5 ملايين نسمة وتمتد على الجزء الأكبر من بحيرة تشاد، وكان القرآن دستوراً لدولته، واتخذ لنفسه لقب أمير .

كان الاستراتيجية الفرنسية ترى في الأمير رابع، عقبة كبيرة على طريق احتلالها للقارة، وعندما حاولت إقامة صلات معه، رفض رابع ذلك، وكان أول عمل يقوم به هو الهجوم على المرتبطين بفرنسا وألقى القبض عليه، وهاجم القوات الفرنسية وألحق بها خسائر فادحة، وتمكنت قواته في مدينة تجباو من إبادة الحملة الفرنسية ومصرع قائدها. وفي 28 أكتوبر 1899م، التحم الجيشان الفرنسي والجيش المسلم واستمرت المعركة لمدة 8 ساعات وتكبد الطرفان خسائر فادحة، وانتهت بانسحاب الطرفين. وانسحب رابع بجيشه إلى الشمال ثم عاود الهجوم وتمكن من تحقيق عدة انتصارات على الفرنسيين .

وفي 22 أبريل 1900، قامت الحكومة الفرنسية بتوجيه ثلاث حملات ضد الزعيم المسلم، والتحمت مع جيشه بالقرب من مدينة كوسيري، وتكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وصمدت القوات المسلمة ونجحت في تحطيم الموجة الأولى من الهجوم الفرنسي، وعندما عاود الفرنسيون الهجوم، تشابك الجيشان بالسلاح الأبيض، وعندما أشعل الفرنسيون النيران بكل ما يحيط بهم. عاود رابع الهجوم، ودارت معركة أشد ضراوة من السابقة، وتمكن رابع بنفسه من أن يقتل قائد الحملة الفرنسية برصاصة في صدره، وعلى أثر ذلك أصيب رابع بجرح وارتمى على الأرض بين جثث الشهداء من رجال الطرق الصوفية في 12 إبريل عام 1900م بعد حرب مع الوثنية وأنصارها والصلبية الجديدة دامت لأكثر من سبع سنوات .

- الفصل السادس : المسلمون والغزو الأوروبي للصومال .

يقول المؤلف : تتميز حركة الجهاد الإسلامي ضد القوى المسيحية في شرق أفريقيا بوجه عام ، وفي بلاد الصومال على وجه الخصوص بأنها أكثر عمقاً ، وأشد صلابة من غيرها من حركات المقاومة والجهاد الإسلامي في بقية أجزاء القارة الأفريقية ص 219 والمؤلف يعزو ذلك إلى أن هذه المنطقة عرفت الإسلام قبل غيرها وشهدت التحاماً بين المسلمين والمسيحيين منذ فجر الدعوة الإسلامية . وقد حمل راية الجهاد ضد الاستعمار البريطاني الشيخ السيد محمد بن عبدالله حسين . وكان شيخاً من شيوخ الطريقة الصالحية . والمؤلف يشبه جهاده بجهاد الشيخ عمر المختار والمجاهد عبد الكريم الخطابي ، وزعيم المهديّة في السودان .

ولد هذا الزعيم في عام 1864 في شمال الصومال . تعلم القرآن الكريم ، ودرس العلوم الشرعية ، وفي عام 1885 أدى فريضة الحج وعاد إلى بلاده بعد عشر سنوات . وتجمع الروايات أن الشيخ عندما عاد إلى بلاده كان يفيض حقدًا ومرارة على الاستعمار المحتل لأرضه . وأخذ يعدّ العدة لتحرير أرضه من الأحباش والبريطانيين . وكانت أولى معاركه مع الأحباش الذين ولوا هارين . بعدها واجه الشيخ تحالفاً بين البريطانيين والأحباش قوامه 15 ألفاً . وتمكن السيد محمد عبد الله من مقاومتهم لمدة 3 أشهر مما اضطرهم إلى الانسحاب . ثم جهزت بريطانيا حملة ثانية عام 1902 بالتعاون مع سلطان هوبيا وانتهت بالفشل أمام المقاومة العنيفة الإسلامية وانتهت بخسارة البريطانيين لأكثر من مائة قتيل . وفي 17 إبريل 1903 دارت معركة ثالثة ، حيث أنزلت هزيمة قاصمة في البريطانيين قتل على أثرها 99 قتيلاً و29 جريحاً وقتل قائد الحملة . أرسل بعدها السيد رسالة إلى الحكومة البريطانية يطالب باستقلال بلاده . لكن بريطانيا رفضت ذلك وقررت إرساله حملة تأديبية بقيادة الجنرال إيجرتون . وفي 19 ديسمبر 1903 بدأت الاشتباكات وبعد ثلاث ساعات أنزل الدراويش من جماعة السيد هزيمة بالقوات البريطانية فاضطرهم إلى الانسحاب . وفي يناير 1904 عادت القوات البريطانية وهاجمت الجيش الإسلامي مما اضطر السيد إلى الانسحاب لحماية جيشه ، وفي 21 أبريل 1904 هاجم إيجرتون قلاع السيد (قلعة جاريسا) ، وبعد معركة دامية سقط هذا الحصن بيد

البريطانيين. لكن بريطانيا فشلت كما يرى المؤلف في تحقيق هدفها الكبير والمتمثل في السعي للقضاء على هذا التأثير الصومالي. ويكتب المؤلف أنه وبالرغم «مما أصاب المجاهدين من خسائر، إلا أن الجهاد اتخذ أشكالاً أشد صلابة وأكثر مناعة. وارتفعت مكانة الزعيم بين ذويه ومواطنيه، وصار بحق بطل القومية الذي يدافع عن الوطن والدين أمام تالكالب المستعمرين، وأطماع الأحباش المسيحيين». ص 240.

وبعد سلسلة الحروب السابقة، تدخلت إيطاليا كوسيط بين الشيخ محمد وبريطانيا، وتم توقيع اتفاق سلام في 26 مايو 1905، مكن الشيخ من استرداد أنفاسه، وبناء قواته، وتنشيط تجارته، واستمر السلام حتى عام 1908، عندها طالب الشيخ بتعديل الاتفاقية تحت ضغط من دراويشه المطالبين بالجهاد، وفي 19 أغسطس 1913 التقى الدراويش مع الجيش البريطاني في دولما دوبي، وفي خلال 6 ساعات تمكن الدراويش من القضاء على القوات البريطانية قضاءً تاماً، ولقي كورفيلد قائد الحملة مصرعه، وصلى الجميع الظهر والعصر في أرض المعركة، وبعدها استولى الشيخ على معظم أراضي الصومال، وبدأ يطلب المساعدة من الأتراك لها، عندها لجأت بريطانيا إلى سلاح الجو وبدأت في 21 يناير 1920 بقصف مواقع الشيخ، وكان رد الشيخ على ذلك بأن أعلن الحرب على بريطانيا. ويرى المؤلف أنه وبالرغم من الخسائر الفادحة التي تعرض لها الدراويش وأسرة السيد، إلا أنها باءت بالفشل، وعاد السيد لتنظيم قواته، إلا أن المنية أدركته في 23 نوفمبر 1920، وبهذا انتهت قصة هذا البطل المسلم الذي كافح الاستعمار لمدة ثلاثة عقود من الزمن.

في الخاتمة... يعرض هذا الكتاب صوراً مشرفة لمجاهدين قضوا نحبهم دفاعاً عن الإسلام وقيمه ضد قوى الوثنية والاستعمار. ومما يؤسف له وبحق أن كتب التاريخ العربي المعاصر تتجاهل النضال المسلم الذي خاضه هؤلاء الأبطال، بينما تفرد صفحات كثيرة لتاريخ الدول الاستعمارية. ومن هنا كان حرصنا على تقديمه للقارئ. وشكراً.

